الفلسفة والتصوف

حدودهما والفروق بينهما

نحاول فى هذه الصفحات القليلة أن نعالج هذا الموضوع الخطير بما نراه قائماً فى أذهان عامة الناس وخاصتهم من تضارب فى فهم الحدود التى يقوم عليها كل من الفلسفة والتصوف، ومعرفة الفروق الدقيقة البعيدة الغور التى تعترض سبيل الباحث فى الفلسفة عامة والروحية منها بصفة خاصة.

ونحن إذ نحاول معالجة هذه المشكلة الدقيقة لا ندعى الإحاطة بموضوعها أو الإلمام بأطرافها، وإنما نقصد تيسير سبلها على الذين يعنون بدراسة هذه البحوث، ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً.

***

فى اعتقادنا أن الفلسفة والتصوف يختلفان عن بعضهما تمام الاختلاف، وإن بديا فى صورة واحدة، لبحثهما فى أحيان كثيرة أموراً واحدة. وتناولهما فى مواضيع كثيرة أغراضاً واحدة، على أنا نرى - رغم ذلك كله - أن وجهة كل منهما تختلف عن الآخر فى البحث وتفترق، تبعاً لاختلاف وجهة نظر كل فريق من الآخذين بهما.

فالفلسفة مثلا تكاد - منذ عرفها اليونان الأقدمون - تبحث فى كل شىء: فتتناول الكلام عن أصول الأشياء، وفى معرفة أعراض الوجود وجواهره، مستندة إلى المنطق، وبمعنى آخر معتمدة على الدليل والبرهان؛ ولا يمنع هذا من أنها تطورت فى النظر إلى حقائق الوجود وأصول الأشياء بتطور الفلاسفة أنفسهم وتقادم عهودهم، إلا أن ما وضعه فيثاغورس وسقراط وأفلاطون وأرسطو وزينون مثلا أخذه الآخرون بحذافيره تقريباً، رغم ما أدخل عليه من تعديل يسير، على أن كلا منهم كان له فهم خاص وعقل خاص وطريق خاصة فى فهم الحقائق والوصول إلى معرفتها بطريقة تختلف باختلاف المنظور إليه، إن حساً وإن معنى.

والتصوف يبحث، وإن أردت دقة فى التعبير، يطلب الاتصال بالجوهر الفرد. أى كانت طريق الاتصال به، فسواء لدى أربابه أكانت تعبدية ظاهرية أم رياضية باطنية، نظرية أم تدبرية، فكرية أم تلقينية، بصرية أو بصيرية، عقلية أو قلبية، علمية أو عملية، شريعة أو طريقة، منطقية أو ذوقية،

حسية أو وجدانية ، نفسية أو روحية ، مباشرة أم غير مباشرة ، اندماجاً أم كوناً ، وحدة أم حلولا ، اتحاداً أم شمولا .

وهذا القصد ، أو تلك الغاية ، إن بدت متفقة فى الظاهر ، فى كل من الفلسفة والتصوف ، فهى مختلفة فى السبل اختلاف كل منهما فى فهم الحقائق معلولة وغير معلولة .

لسنا ننكر أن التصوف نوع من أنواع المعرفة ، ولسنا ننكر أن الفلسفة تشمل أنواعاً شتى من المعرفة العامة على اختلاف صورها وتعدد مناحيها ، ولكنا ننكر أن تكون الفلسفة أكثر من التصوف ، أو أكبر قيمة وأعلى درجة منه ، ذلك بأن بداية التصوف نهاية الفلسفة ، إذ أولى درجاته معرفة الحق فى أية صورة من الصور الوجدانية ، التى لا تتم بغير الحكمة ، تلك الحكمة التى تعتبر نهاية درجات الفيلسوف .

يقول (مالبرانش Malebranche) فى هذا المعنى : لست أستطيع أن أسمى الفيلسوف حكيما وإنما طالب حكمة ، لأن الحكمة من شأن فلاسفة اللاهوت لا فلاسفة المنطق (يقصد ما يسميه المتصوفة — وما كان يسميه السبعة المعروفون بأساطين الحكمة عند اليونان : أوما كان يسميه أفلاطون — المثاليين Idealists ، وهؤلاء تقوم المعرفة لديهم على تذكر المثال الأول Remembrance) .

قد تبحث الفلسفة فى الإلهيات كما يبحث التصوف ، ولكن هذا لا يعنى أن لهما طريقة واحدة إذ أن الغاية واحدة ، والحق أن لكل منهما طرقاً تخالف طرق الآخر ، فما هى هذه الطرق ؟

عند ما قسم أفلاطون درجات المعرفة ، قسمها ثلاثة أقسام :

١ — المعرفة الحسية ، وهى التى تقوم بشهادة الحس على الواقع كائناً ما كان الحس والمحسوس ، وهذه أسفل درجات المعرفة .

٢ — المعرفة العقلية ، وهى التى تقوم على الدليل والبرهان ، نتيجة ما يدركه العقل إدراكاً يقينياً أو ظنياً ، ويدخل الفلاسفة المحدثون التأمل فى هذه ، وإن كانوا يسمونها « الملاحظة » ، أى ملاحظة العقل لأعمال الحواس ، وهذه المعرفة هى موضوع الفلسفة والعلوم جميعاً .

٣ — المعرفة المطلقة ، وهى التى تقوم بالتدبر المباشر ، أو بالعقل القلبى ، ولا نقول « العقل الباطن » ، لأن مرمى هذه الكلمة فى علم النفس الحديث ، يخالف تمام المخالفة المعنى القديم لها عند فلاسفة اليونان ، وأخصهم بالذكر فيثاغورس وأفلاطون وأرسطو ، وفلاسفة الإسكندرية وأخصهم بالذكر فيلون Philon وأفلوطين Plotin ، وجميع فلاسفة الإسلام ، وأكثر فلاسفة القرون الوسطى فى أوروبا ، وقد كان المقصود بها تبليغ رسالة الروح إلى النفس ، أو مراقبة العقل المباشر لأعمال العقل الواعى ، كما يباشر العقل الواعى أعمال الحواس الظاهرية .

وهذه المعرفة قد تكون أيضاً بالقلب والوجدان ،أو بالذوق والخاطر، وهذه يطلق عليها ابن سينا عبارة « المعرفة الحدسية »، وهي التي يتوصل إليها الانسان دون طلب أو برهان،وبعبارة أخرى تكون نتيجة للوحي أو الإلهام ؛ أو التصور العالي للحقائق الكونية ،وهذه هي الحكمة أو الإدراك بالفطرة دون حاجة للتعليل أو استخدام وسيلة من وسائل البحث والاستقراء .

تتبع هذه الدرجة الأخيرة درجة أعلى وأرفع ، تلك هي درجة التصوف ، ويمكننا هنا أن نقول إن التصوف بدايته الحكمة التي هي نهاية الفلسفة ، فهو أكثر من الحكمة التي هي أكثر من الفلسفة ،وذلك لاعتماده على الذوق والوجدان ،ولأن أساسه معرفة الإنسان نفسه،و« لأنه قبيح بكل عالم أن يدعي معرفة حقائق الأشياء ، وهو لا يعرف نفسه ،ويجهل حقيقة ذاته وهو يتعاطى الحكمة [1] ، لأن مثل ذلك كمثل من يطعم غيره وهو جائع ،أو يكسو غيره وهو عريان ، ويهدي غيره وهو ضال في الطريق الأنهج ، وقد علم كل عاقل ذاته في هذه الأشياء ، بأنه ينبغي الإنسان أن يبتدىء أولا بنفسه ثم بغيره ، والإنسان لا يمكنه أن يعرف نفسه على الحقيقة إلا أن ينظر ويبحث : وذلك من ثلاث جهات ؛ أحدها الجسد بمجرده عن النفس ، والثاني النظر في أمر النفس والبحث عن جوهرها بمجردها عن الجسد ،والثالث النظر والبحث عن الجملة المجموعة من النفس والجسد معاً [2] »

وكما أن للإنسان خمس حواس حساسة ، كذلك له خمس قوى أخر روحانية « سيرتها غير سيرة الخمس الحساسة الجسمانية ، وهي القوة المتخيلة والمفكرة والحافظة والناطقة والصانعة، وذلك بإدراك رسوم المعلومات إدراكاً روحانياً من غير هيولاها ؛ فأما الحساسة فلا تدرك محسوساتها إلا في الهيولى [3] » .

ولبيان ذلك نقول : إن كل قوة من القوى الحساسة مختصة بإدراك جنس من المحسوسات الخاصة ،فالباصرة لا تدرك الأصوات،ولا الأطعمة،ولا الرائحة،ولا الملموسات،وكذلك السامعة لا تدرك الألوان، ولا الأطعمة ، الخ ،وهكذا كل واحدة لا تشارك غيرها فيما تدركه ، و« أما القوى الخمس الروحانية فإنها كالمتعاونات في إدراكها رسوم المعلومات ، وذلك أن القوة المتخيلة إذا تناولت رسوم المحسوسات كلها وقبلتها في ذاتها كما يقبل الشمع نقش الفص، فإن من شأنها أن تناولها كلها إلى القوة المفكرة من ساعتها ، فإذا غابت المحسوسات عن مشاهدة الحواس لها بقيت تلك الرسوم مصورة صورة روحانية في ذاتها ، كما يبقى نقش الفص في الشمع المختوم

---

(١) هذا رأي اخوان الصفا ،وقد كان الاصطلاح الفلسفي القديم للمشتغلين بالعلوم الفلسفية اطلاق كلمة حكيم على المشتغل بها ، يريدون بهذا أن المشتغل بالحكمة أقل من المتصوف،وهذا ظاهر من معنى الازراء بهم.

(١) اخوان الصفا ٣ : ٣٤٩

(٢) اخوان الصفا ٢ : ٣٤٩ و٣٥٠

صوراً بصور روحانية مجردة عن هيولاها، فيكون عند ذلك لها كالهيولى، وهي فيها كالصورة[1]».

وما يقال عن المتخيلة يقال عن القوى الأخرى . وإذن فيصح أن نعتبر الفلسفة خطوة تمهيدية للتصوف في بعض الأحيان ، ولا نقول في جميعها ، ووسيلة من وسائله في بعض الأحيان أيضاً ؛ فلا يجوز اعتبارها أساساً للتصوف أو وسيلة ضرورية له ؛ لأن مجاله أفسح ، والسبل إليه متعددة فضلا عن طريق الفلسفة : منها النظرى البحت ، كما أن منها التلقين والإيحاء والإلهام والمشاهدة القلبية أو المشاهدة العيانية التي تدرك بالعقل المدرك .

وكلمة «فلسفة» هي في ذاتها دليل على أن «التصوف» أكثر منها وأعلى ؛ فالتصوف يرادف الحكمة اصطلاحاً ، كما أن الصوفى يرادف الحكيم في اصطلاح الفلسفة اليونانية القديمة ؛ أما كلمة « فلسفة » فلا تؤدى معناها إلا طلب الحكمة وليس الحكمة ذاتها ، والفيلسوف هو طالب الحكمة أو محب الحكمة أو رفيق الحكمة الذى يريد الاتصال بالحكمة ؛ وليس هو الحكيم الصوفى .

وتاريخ الفلسفة القديمة يثبت أن فلاسفة اليونان الأقدمين عندما بدءوا وضع القواعد والأوضاع للفلسفة، قرروا أن ثمة شيئاً آخر أعلى من الفلسفة ذاتها، وأن له طريقاً أخرى باطنية تخالف طريق الفلسفة ؛ ولذلك لا نستطيع مطلقاً أن نسمى كل فلاسفة اليونان فلاسفة أو حكماء فحسب ؛ وإنما نستطيع أن نسمى بعضهم صوفيين، واضعين في قائمة هؤلاء: فيثاغورس وسقراط وأفلاطون ، ونخص بالذكر منهم أفلاطون الذى عرف باسم «أفلاطون الإلهى» ، والذى وضع نظرية « المثال » على قياس نظرية « الأرقام » عند فيثاغورس ؛ وقد كانت لكل منهم في تعاليمه طريقتان تماثلان طريقتى أقطاب التصوف : طريقة التعليم الخارجى وهى الطريقة الفلسفية ، وطريقة التعليم الداخلى الذى يختص بالحكمة الحقة .

كانت هناك إذن طريقتان ، وكان بتلك الحالة يوجد ارتباط حقيقى بين الفلسفة والمعرفة العليا أو الحكمة أو التصوف، أو أى اسم تختار ، سمه ما شئت ؛ فلن نعدو أبداً الإقرار بأن ثمة شيئاً أعلى من الفلسفة ؛ ذلك الشيء هو الذى لا يصل إليه الانسان بالحس ولا بالعقل الانسانى ؛ وإنما بما هو أرفع من ذلك وأشرف .

وفي بعض الحالات يتضح هذا الارتباط بين الفلسفة والتصوف كأنه ارتباط وثيق جداً ؛ وآية ذلك تلك الآراء التى بعثتها الأفلاطونية الحديثة وذاعت في مدرسة الأسكندرية، وفي أوائل العصور الوسطى ؛ وفي بعض المدارس الفلسفية الحديثة التي تتأثر آراء فلاسفة خاصين كاسبينوزا Spinoza أو مالبرانش Malebranche أحياناً ؛ وليبنتز Leibnitz أحياناً أخرى .

والخلاصة أن الفلسفة فكر ونظر، أما التصوف فذوق ووجدان ؛ الفلسفة علم، والتصوف عمل ؛ الفلسفة طلب معرفة بالدليل والبرهان ؛ والتصوف تلقى المعرفة دون طلب أو برهان ؛ الفلسفة مجالها العقل ، والتصوف مجاله الروح ؛ الفلسفة معرفة الصور العقلية بما يعرف عن

(١) اخوان الصفا ٢ : ٣٤٩ و ٣٥٠ .

هـذه الكلمة فى علم النفس الحديث . وليس بما عرف عنها فى حدود الفلسفة القديمة ، وخصوصاً عند أفلاطون الذى كان يفهمها على أنها الإدراك العقلى المباشر للروح ، والذى نستطيع أن نقول إنه كان يفهمها على أنها المعرفة لذاتها وحقيقتها ، الحقيقة التى يصبح العارف بها عارفاً بكل الأشياء ومحتوياتها فى نفسه هو ، كما هى فى نفسها هى ، وكما هى فى المبدأ الأوحد ، مبدأ وحدة الوجود .

الفلسفة قوانين وحدود ، والتصوف إطلاق ولانهائية ، الفلسفة استنتاج واستقراء ، والتصوف بدهيات وتسليمات ، الفلسفة كلام وكتابة ، والتصوف إشارات ورموز ، الفلسفة اكتساب ، والتصوف فطرة ، الفلسفة فى مجموعها غائية ، والتصوف فى مجموعه ذاتية ، الفلسفة عمومية ، والتصوف خصوصية ، الفلسفة حديثة ، والتصوف قديم ، لأنه نزعة لازمت البشرية فى كل عصورها ، بخلاف الفلسفة فإنها لم تعرف إلا فى القرن السادس قبل الميلاد ، وفى قطر معين هو اليونان ، أما التصوف فقد شمل بقاع العالم أجمع ، لأننا نقدر أنه كان لابد من وجود طريقة أخرى لمعرفة الحقائق فى ذاتها قبل نشأة الفلسفة ، وقد ثبت أن رجالا معروفين كانوا موجودين قبل القرن السادس قبل الميلاد فى الهند وبعض الأقاليم الشرقية كالهند والصين وفارس ، فكانت لهم طرقهم الخاصة فى معرفة الوجود .

وفى التدليل على صحة ما قدمنا من الفروق بين الفلسفة والتصوف ، نذكر القصة الآتية التى تعزى إلى ابن سينا عند ما لقى شيخ متصوفة عصره «أبا سعيد بن أبى الخير» فى خلوة بنيسابور ، ذلك أنهما بعد أن تذاكرا مسائل فى الفلسفة والتصوف افترقا ، فقال الفيلسوف عن المتصوف « كل ما أعرفه يراه »[1] ، على حين أن المتصوف قال « كل ما أراه يعرفه[2] » ، وفى رواية أخرى قال الفيلسوف « كل ما أراه يعرفه » ؛ وليس أدل على الفرق الشاسع بين الفلسفة والتصوف من عبارتى هذين الرجلين ، فإن الفيلسوف يصور المعرفة على أنها وليدة العقل بعد إعمال الفكر وقيادته بالبرهان والأشباه والنظائر وقياس ما غاب بما حضر وترتيب المقدمات للوصول إلى النتائج ، على حين أن الصوفى يصور معرفته على أنها رؤية وشهود قلبى وإدراك مباشر للحقيقة الأولى المطلقة ، وهذه المعرفة اصطلح الإسلام على تسميتها «المعرفة الحدسية» ، واصطلح المحدثون على تسميتها «المعرفة المباشرة Connaissance imimédiate»

بقيت هناك فروق كثيرة لو شئنا تعدادها لاحتجنا إلى أكثر من هذه الصفحات ، فلنقف الآن عند هذا الحد ، راجين أن تتاح لنا فرصة أخرى لتفصيل ما أجملنا ؟

---

(١) أى يراه المتصوف بقلبه دون طلب او برهان عليه

(٢) أى يعرفه ابن سينا بعقله ، أى بالعلل والبرهان